المبحث الثاني

الأمثال والحكم

كل من الحكمة والمثل عبارة قصيرة بليغة، يكونان شعراً أو نثراً، وهما وليدا التجربة الصادقة والعقل الراجح والرأي السديد، وهما في النثر أكثر دوراناً من الشعر؛ وقد يعمد الشعراء إلى الحكمة أو المثل طلباً للمعنى من جهة وتزيين الكلام من جهة أخرى.

المثل

هو قول موجز بليغ يعتمد على حادثة أو قصة أو مناسبة قيل فيها ويضرب في الحوادث المشابهة لها.

وقد نُسبت إلى الجاهليين أمثال كثيرة، تصدر في الغالب عن أناس مجهولين من عامة القبائل، وتدور على الألسنة بسرعة، وقلّما يمسها تغيير، حتى لو خالفت قواعد النحو والصرف، في مثل قولهم: مُكره أخاك لا بطلٌ، والصحيح مُكره أخوك؛ فنائب الفاعل حكمه الرفع بالواو، وقولهم: أعطِ القوس باريها بتسكين الياء في باريها والقياس فتحها.

ومهما يكن من أمر، فإن الأمثال الجاهلية تسير وفق نظام النحو العربي، وتتسم طائفة منها بالبلاغة، إذ كانت ترد في خطبهم ووصاياهم، يقول الجاحظ: كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدّة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع[1].

وقد تعمد الأمثال إلى ضرب من التوازن الآتي من السجع ، ولربما اهتمت بالتصوير، فتكون في نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية[2]. فأنت إذ تقرأ هذه الأمثال: «وياتيك بالأخبار من لم تزوّد» «شنشنة أعرفها من أخزم»

(1) البيان والتبيين، 1/ 271. والمرفق/ كمنبر ومجلس ومسكن، ما استعين به.

(2) الميداني، مجمع الأمثال، 1/ 5.

«إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه» «كالمستحبر من الرمضاء بالنار» و«رمتني بدائها وانسلّت»، تحسّ بهذا الإيقاع الجمال الآتي من جمال الصياغة[1].

وقد دُوّنت الأمثال منذ أواسط القرن الأول للهجرة، إذ أخذ بعض النسابين يؤلفون فيها من أمثال صُحار العبدي وعُبيد بن شرية، ثم توالت كتب الأمثال في القرنين الثاني والثالث، فيؤلف أبو عبيد القاسم فيها كتاباً يشرحه من بعده أبو عُبيد البكري عنوانه «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال»، ويؤلف أبو هلال العسكري كتابه «جمهرة الأمثال» ويخلفه الميداني صاحب كتاب «مجمع الأمثال»، وقد رتبت الأمثال في هذه الكتب بحسب الموضوعات حيناً، وبحسب الترتيب المعجمي حيناً آخر. وبذلك اختلطت الأمثال الجاهلية بالأمثال الإسلامية، ويرى شوقي ضيف أن أصحاب هذه الكتب أوردوا إشارات تدل على جاهليتها وقدمها، فهم يسوقون مع المثل قصة جاهلية تفسره، وقد ينسبون المثل إلى جاهليين[2].

وقد اشتهر بعض الجاهليين بالحكمة وضرب الأمثال، ومنهم أكثم بن صيفي، وعامر بن الظّرب، ولبيد بن ربيعة.

نماذج من الأمثال

1. **جزاء سنمّار**[3]: (يُضرب للمحسن يلقى على إحسانه شرّاً)، وأصله أنّ بنّاءً رومياً بنى قصراً للنعمان بن امرئ القيس اللخمي، يسمى الخورنق، فلما أتمّه قال له سنمار: إني أعرف موضع آجرة (لبنة)، لو زالت لسقط القصر كله، فقال له النعمان: أيعرفها أحد غيرك؟ فقال: لا، فقال النعمان: إذن لن يعرفها أحد بعد اليوم، وأمر بسنمّار، فرُمي من أعلى القصر إلى أسفله، فمات.

2. **يداك أوكتا وفوك نفخ**[4]: (يُضرب لمن يقع في سوء فعله)، وأصله أنّ رجلاً نفخ قربة وربطها ثم نزل بها يسبح في نهر، وكانت القربة ضعيفة الوكاء (الرباط)

---

(1) انظر: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص409.
(2) انظر:م.ن ، 404 و405.
(3) انظر: الميداني، مجمع الأمثال، 1/ 220.
(4) انظر: م. ن، 2/ 491.

3. كل فتاة بأبيها معجبة[1]: (يُضرب لمن يعجب بمن يخصّه).
4. تجوع الحرة ولا تأكل بثديها[2]: (يضرب لمن يترفّع عن الدنايا).
5. مواعيد عرقوب[3]: (يُضرب في خُلف الوعد والمماطلة).

ونُسبت أمثال إلى لقمان عاد، وكانت قبيلته تنزل في الأحقاف، وقد بادت ولم تبق منها باقية في الجاهلية. وبه ضربوا المثل في طول العمر، إذ قيل إنه عاش عُمر سبعة نسور وأن كل نسر منها عاش ثمانين سنة، وكان لُبد آخرها. ومما قالوه في ذلك: طال الأبد في لُبد[4].

الحكمة

الحكمة قولٌ موجز بليغ يحمل في طيّاته معنى سامياً، وتجربة إنسانية عميقة. وقد اشتهر العرب بالحكمة في الجاهلية، ومن حكمائهم أكثم بن صيفي التميمي، وعامر بن الظّرب العدواني، وكلاهما من المعمّرين.

ومن الحكم التي تدور على لسان أكثم:

- رُبَّ عَجَلة نهب ريثا[5].
- المرء يعجز لا محالة[6].
- رُبَّ قول أشدّ من صول[7].
- هدنة على دَخَن[8].

(1) الميداني، مجمع الأمثال ، 2/ 108.
(2) المصدر نفسه ، 1/ 168.
(3) المصدر نفسه، 2/ 346.
(4) المصدر نفسه، 1/ 594.
(5) المصدر نفسه، 1/ 411.
(6) المصدر نفسه، 2/ 344.
(7) المصدر نفسه، 1/ 406.
(8) المصدر نفسه ، 2/ 447.

- ويلٌ للشجيّ من الخلي[1].

وتنسب إلى عامر حكم ووصايا كثيرة لقومه، ومن أقواله:

- رب زارع لنفسه حاصِدٌ سواه[2].
- من طلب شيئاً وجده، وإن لم يجده أوشك أن يقع قريباً منه[3].
- أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا هو فَهَ[4] عن الحكم وجارَ عن القصد. وقيل في ذلك: إنما العصا قُرعت لذي الحلم[5]. وقال المتلمّس في ذلك[6]:

لذي الحِلم قبل اليوم ما تُقرع العصا وما عُلِّم الإنسان إلا ليعلما

وهو بيت ضمّنه ابن الرومي في شعره، إذ يقول[7]:

لذي الحِلم قبل اليوم ما تُقرع العصا وقد قالها من قبلي المتلمِّسُ

وعلى أية حال فإن الحكم والأمثال التي تنسب إلى الجاهلية صحيحة إلى حد كبير، وذلك لأنها دوّنت منذ القرن الأول الهجري على يد عبيد بن شريّة، ولكونها قصيرة تعلق بالذاكرة وتتداولها الألسنة جيلا بعد جيل. وما زال قدْر منها معروفاً ومتداولاً حتى اليوم.

(1) الميداني، مجمع الأمثال، 2/ 426.
(2) المصدر نفسه ، 1/ 437.
(3) المصدر نفسه ، 2/ 357.
(4) فَهَ: جارَ وانحرف.
(5) المصدر نفسه، 1/ 52.
(6) المصدر نفسه ، 1/ 37.
(7) ديوان ابن الرومي، 3/ 1233.